الازدواج اللغوي في البلدان المغاربية
(وأثرالموروث العربي في ثقافته الشعبية)

د- محمد حجازي

جامعة باتنة 1

ملخص:

تهدف الدراسة إلى الكشف عما يتعلق بتناول الهويات اللغوية، في ظل المقاربات المعرفية الدالة على التشكيل والتمكين للهدف وللمعنى.
إن دراسة الجذور اللغوية للغات، يمكن من تحقيق الهدف الدراسي حول لغة ما. فاللغة العربية مثلا لها امتدادات شكلية ومعرفية، لكثير من اللغات واللهجات التي تنتمي للمجموعة المشكلة لها. مثل اللغة الأمازيغية، والابعاد التي تشكل الجوهر المعرفي لها. ومن ثم جاءت الصورة اللسانية والمعرفية في تقارب متكامل حول المنهج والهدف والدراسة والاشكالية والتناول.

Résumé

L'objectif de l'étude est d'identifier les problématiques liées au traitement des identités linguistiques, à la lumière des approches cognitives qui caractérisent la formation et l'autonomisation de l'objet et du sens.
L'étude des racines linguistiques des langues peut aider à atteindre l'objectif d'apprentissage d'une langue. La langue arabe, par exemple, a des extensions formelles et cognitives, pour de nombreuses langues et dialectes qui appartiennent à son groupe. Tels que la langue amazighe, et les dimensions qui forment l'essence de sa connaissance. Ainsi, l'image linguistique et cognitive est venue dans une approche intégrée du curriculum, de l'objectif, de l'étude, de la problématique et du traitement.

Abstract

The aim of the studyis to identify the issues related to the handling of linguisticidentities, in light of the cognitive approachesthatcharacterize the formation and the empowerment of the object and the meaning. Studying the linguisticroots of languagescan help achieve the learning objective of a language. The Arabiclanguage, for example, has formal and cognitive extensions, for manylanguages and dialectsthatbelong to its group. Such as the Amazigh language, and the dimensions thatform the essence of itsknowledge. Hence, the linguistic and cognitive picture came in an integratedapproach to the curriculum, the objective, the study, the problematic and the treatment.

مدخل مفاهيمي وبُعد الصيرورة اللسانية

يسير نسق اللغات وفق جوهرها ، على أنها تكوين مترابط، يعتمد أكثر من خاصية وأداة، للوصول بأطراف الحوار إلى التفاهم وإيجاد صيغ للتقارب والمعرفة، والتداول في حجم الهياكل اللغوية والاجتماعية المؤسسة للعمليات في مختلف أضربها ونشاطاتها، والتي تتراوح حسب مُقدّرات كل مجتمع و توجهاته، التي تكوِّن مجموع الدلالات التي يستهلك بها قدرا جمّا من المعارف اللغوية وتداولياتها على مستويات الأخذ وعتبات العطاء.

إن جوهر اللغة في رسالتها، حدده ابن جنّي في خصائصه، حين أبدع في التوضيح بالقول: على أن اللغة وسيلة للتواصل بين الناس، بمعنى هي وسيلة لتحقيق الرغبات والإرادات والغايات... وقد أفاض في مشهد اللغة وتأثيراتها الكثير من الكتاب من أهل الفكر والأدب والنقد، وراحوا جميعا يقدمون خلاصات لفقههم وتجاربهم تجاه معنى اللغة وفحواها، الذي يتفاعل مع التحضر، كما يتفاعل أيضا مع التخلف – وهو الاستثناء –

ويمكن معرفة ذلك من خلال اللغة العربية، التي كانت لغة العالم، ومازال تأثيرها قائما في معظم اللغات واضحا بيّنا للعيان، فقد أثّرت في مجموع اللغات الشرقية عموما كالفارسية والتركية والأوردية مثلا ...

كما أثّرت وأثْرت اللغات الغربية كالفرنسية والانجليزية والإسبانية... حتى أن بعض لغات بعض المناطق في أوروبا تُعد جزءا من اللهجات العربية المتداولة:كما هو الشأن في لغة جزيرة مالطا، التي هي عبارة عن لهجة الشمال الليبي في عمومها؛ إلا بعض المصطلحات من هنا وهناك التي أخذتها من اللغة اللاتينية.

ويمكن في هذا المقام ذكر المعجم اللساني الإسباني، الذي يحوي في جذور لغته أكثر من عشرة آلاف مصطلح لغوي من أصل عربي. وكما هو الحال أيضا في الاتساع بالنسبة للغة الأمازيغية في بلدان المغرب العربي (الجزائر – ليبيا – تونس – المغرب) والتي هي عبارة عن خليط من لهجة (حِمْير) اليمنية القديمة، والعربية القريشية فيما بعد، وأيضا المفردات الفرنسية المتداولة فيها بتفاوت يتأرجح بين الكثرة والقلة.

إنّ إشكالية المعرفة ، تتحدد من خلال اللغة ومقتضياتها واستعمالاتها، وجوهر التقصي من خلالها، في مدى ما تقدمه من وحدة لغوية متجانسة ومتكاملة، وأيضا في مدى قدرتها على التواصل مع بقية الألسن الأخرى في عالم استحوذت عليه المعرفة بوسائل إعلام ضخمة، لا تترك شاردة ولا واردة إلا أحصتها وبثّتها وعرّفت أهل المعمورة بها.

إنّ اللسان في بلدان المغرب العربي، يتماثل شيئا فشيئا إلى القدرة على التعميم والاستعمال الكامل للقدرات والمهارات اللغوية، أمام أصوات تتعالى منادية بتهميشها في الزوايا والمساجد ومناسبات الشعر والفن والأدب، وهم يعتقدون أنها لا تصلح إلا لذلك ؟؟

ونشوء الازدواج اللغوي في بلدان المغرب العربي، يمكن قبوله من باب اللغات الأرومتوسطية الدخيلة، بينما لا يقع الإشكال بالنسبة للغة العربية، التي هي في الأساس الماكينة التي حركت دواليب الفعل اللغوي في بلاد المغرب؛ وذلك من أثر الهجرات التي حدثت من بلاد العرب في الجزيرة واليمن، إلى بلاد الشمال الإفريقي، إذ امتزجت بواكير اللسان العربي مع بعض اللهجات التي هي عبارة عن خليط من لسانٍ قام على سفوح جبال الأطلس، وتعدى امتداده إلى فيافي الصحراء الشاسعة، والذي شكل أنموذج المعرفة اللغوية المتماسكة من خلال التأثير الكبير على اللسان الأمازيغي، الذي تعرَّب بِبُعد التأثير اللغوي العربي في المصطلح والموروث الدلالي إن على مستوى الأفكار، أو مستوى التقاليد والأعراف الإجتماعية السائدة. وعليه يمكن الخلوص إلى دراسة الموروث اللغوي العربي في اللسان الأمازيغي المغربي ومدى تقارب البيان الوظيفي للغة مع ما يحمله القاموس اللغوي من أبجديات الحركة اللسانية والإشكال المطروح.

1- بُعد الأصالة والإنية .. واكتمال الوجود الإنساني الفعَّال

تُعرف الأمم في قيمة وجودها وأسس بنائها وحياتها، بما تمتلك من بُعد الأصالة والانية، حيث يُعد ذلك من أهم الأسس التي يقوم عليها البناء الحضاري والمعرفي بتعبير ابن خلدون(1) . واللساني بنعت ابن منظور(2). ولعل ذلك مرده إلى أن كل شعب أو أمة، لكي تثبت وجودها، وتُحتَرم من قبل الآخرين، إنما ذلك يتحدد وفق ما لديها من تأصيل وعراقة تجعلها تتميز بلغتها وعاداتها وتقاليدها، وأنماط الحياة المتعددة مجتمعة فيها، وما أشد حاجتنا إلى الاغتراف من ماضينا المشرق، لنتجاوز الحاضر البئيس التعيس، الذي تتعثر في مستنقعه الأمة العربية من أطلسها إلى خليجها(3). وحتى القرآن الكريم فصل في أمر الأمم والشعوب، حين قال تعالى:«**يَا أَيُّهَا النَاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم منْ ذَكرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبائلَ لتَعَارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ الله أتْقَاكُم**». (4)

ميزتان اثنتان يجب التحلي بهما، وفق معايير الأنا والآخر، وهي: (لتعارفوا) «**إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ الله أتْقَاكُم**». وغير ذلك إنما اجتهاد وبذل، من أجل إثبات الوجود الفعال، الذي يساير دواليب الحياة، وينشد فيها النجاح والتحرر، كما يطرح ذلك المفكر مالك بن نبي (رحمه الله).(5)

إن فكرة العولمة والمفهوم العالمي الشامل للتراث، إنما جاءت لتحطم الأسوار المنيعة التي حافظت وتحافظ على الأخذ بالأسباب وترسيخ فكرة الأنا المنفتحة على الآخر، بما يكفل اكتمال عناصر وجود الإنسان الفعال في الحياة، كما يذكر د- محمد الغزالي، بأن جمع أسباب التحضر والتقدم، يدفع بالإنسان إلى مزيد القوة واكتساب المناعة، والمحافظة على الهوية، والدين، واللغة...إلخ (6)، لكن بفقدان الإرادة والتخلي عن الأسباب، يندثر الناس أشتاتا، حتى يفقدوا هوياتهم ولغاتهم، وما يمتلكون من مقدرات ومعارف ولغة، وحتى الدين أيضا... كما حصل لشعوب في إفريقيا، وأمريكا اللاتينية واستراليا...الخ: " حين دخل الإسلام إلى مناطق إفريقيا وإيران، والقبائل البربرية (الأمازيغية)البدوية، لم يجد أرضا فارغة من العادات والتقاليد، وإنما كانت منتظمة في سلوكات معرفية متداولة وراسخة". (7)

والأصل في الإنسان صاحب الوجود الفعلي ليس هكذا، بل رحلته مع التاريخ تبدأ بعلاقته حين البحث: " عن المنهج اللغوي التاريخي من زمن مبكر في عمر الإنسان على سطح هذا الكوكب، كانت البداية مرتبطة برغبة الإنسان في معرفة أصول الأشياء والعلاقات داخل هذا الكون".(8)

إن العولمة كما شُرحت هي: التهميش، بمعنى الاستحواذ بمنطق واحد، ولغة واحدة: " إن نمط تكوين الحداثة(العولمة)، يعني الزحف على الحضارات المجاورة".(9)

إن نمط تكوين الحداثة (العولمة) يعني الزحف على الحضارات المجاورة ولو كان الأمر لم يستعص عليهم، لكان أمرهم بمنطق دين واحد فقط، أو بدون دين أصلا. ولو اقتضى الأمر أن يترك الناس هوياتهم الثقافية والمعرفية، لذاب الجميع في أتون المعركة الحضارية التي تذيب كل ماهو تراث ومنفصل عنها:" إن جدل الوعي والواقع، يعمل بأنشطة المتغيرات العلمية والتطورات الاجتماعية والثورات المتجددة، على مستوى القيم والعادات والتقاليد والأخلاق، ومستوى الابداع الفني والتطور الفكري العام، كان كل ذلك يسير ويتكامل ويتشابك ضمن إيقاع متوازن، يؤسس هوية حضارية واحدة جديدة كل الجدّة ".(10)

وفي عالمنا العربي، تعيش اللغة العربية ظرفالهويةوالإنية، وظهرت إشكالات جمّة من الصعب تداركها مع هذا الزمن العسير، الذي فرض منطق أحادية القطب، وأحادية اللغة، وأحادية التصرف في مصائر الشعوب في مادتهم وثقافتهم ومدركاتهم ومحصِّلاتهم ... إلخ.

واعتقد البعض وفق هذه المعطيات المهيمنة، أن يغفل التراث والثقافات الشعبية ظنا منهم أن ذلك سيمحوها من الذاكرة الجماعية، وبالتالي تنتهي إلى زوال، لكنهم لم يدركوا حقيقة أن كل محظور مرغوب، وكل مستور محبوب: " حاول الأدباء المعاصرون في مطلع عصر الريادة، إغفال قيمة التراث الشعبي كمصدر من مصادر ثقافتهم أو إنتاجهم الأدبي، ونظروا إليه نظرة ازدراء تحط من قيمته الفنية والأدبية والجمالية، بل لقد اعتبره بعضهم خطرا جسيما... (11).

لقد كتب د- ابن سلامة مقالا عن هذه الهيمنة الجهنمية، التي تفرضها العولمة باسم الشعوب المتقدمة، على الشعوب الضعيفة، والاستلاب اللغوي المهيمن، ومدى جاهزية اللغة الإنجليزية للاستحواذ على الكل، وقد وصلت إلى ذلك وفي كل المجالات العلمية أو الأدبية أو الفلسفية، يقول: " إذا كانت أولوية اللغة الانجليزية من المُسلمات التي لا تقبل الجدل في أيامنا هذه، فإن نظرة الدارسين لمستقبل لغات الدرجة الثانية، ومنها اللغة العربية، تتأرجح بين التشاؤم المفرط، والتفاؤل المفرط...".(12)

إذا هناك مشكلة عميقة يمكن في مجال التراث وفي غيره، أن تطرح بالسؤال التالي: هل يمكن حين الحديث عن التراث والتقاليد والماضي ككل، أن نبدأ من البدايات؟ أم نجعل النهايات هي مفصل معركة البداية؟ وهذا ما ذهب

إليه المفكر / محمد أركون، حين تحدث عن أن : الحاضر مستفز، وعليه تبنى الفرضيات ومنها نصل إلى إيجاد حلول لمشكلة التفاوت في الدراسة وبناء العقل، وإثبات الهوية الدينية والثقافية ومنها التراث على عراقته...(13)

إن ذلك يعني بالمفهوم الدقيق لمعركة المفاصلة بين الإنية والأصالة والهوية والحداثة ومتطلباتها، أن تكون الدراسة محل ربط بين ماض وحاضر، واستشراف للمستقبل:" فلا يمكن فهم مشكلة مطروحة في الحاضر، إلا إذا نبشنا عن جذورها العميقة في الماضي". (14)

بالقدر الذي يؤدي فيه إلى النجاعة والتميز، وفق حركية التداول الجزئي في الإطار الإنساني الكلي العام، وعليه فإن:" ضرورة المصالحة مع التاريخ، بالتخلي عن العقل الوسيط والمفتون بالآخر وثقافته، ومن ثمة تملُّك الأزمنة الحديثة".(15)

وحين نتساءل عن التفاؤل المفرط، يمكن أن ننعه بالقول: غلى أنه من صلب الأماني ليس إلا ! بينما التشاؤم هو السائد في الوقت الذي تنفصم فيه عرى الهوية واحدة تلوى الأخرى، لولا قيم الدين وتأصيله لهذه المبادئ والسلوكات، التي هي من دعوته وصلب ما يرمي إليه.

2- الهُوية (قراءة في الأصول والمسارات)

تتشكل مفاهيم القيم والثقافات وفق رؤى وأطروحات العقل المنتمي لتلك المهارات المعرفية، التي تحمل الدلالات وواقع شعوب الانتماء والأصالة و صناعة الحضارة.

إن فقه واقع الثقافات بعمومها، يعني حفظ الدرس النظري والتطبيقي الذي يساهم في إيجاد البدائل المعرفية، التي تنهض بالأمة في تركيبتها الاجتماعية و المفاهيمية، في حدود الامتداد لا الانقطاع، كما حدث لبعض الشعوب، حين انصهرت في مفاهيم لغة الآخر، وتعدى الأمر إلى انفصامها، وقطع عرى التواصل فيما بينها وبين ماضيها؟

إن الأمر بالنسبة لبعض الشعوب، يتعدى حدود ذلك الفعل الإجرامي في حق الثقافة الشعبية، التي تحمل بذور الماضي السحيق، والتي تحوي هدف الرغبة والتميُّز، والفعل الحضاري الذي أهّل و أصّل تلك المفاهيم والإدراكات: " إن قراءة التاريخ، تضيف لقارئه عمرا ثانيا، وإنها من ثم تضاعف العمر، لأنها تضيف إلى عمر القارئ عمر الشعوب والقادة والأبطال، الذين قرأنا تاريخهم، عن طريق إكسابه خبراتهم، وجعله يعيش ما عاشوا من أحداث ووقائع وأيام".(16)

إن الأمر بالنسبة للعرب والحضارة العربية، وما انبثق عن مفهوم هذه الحضارات الثقافية والمعرفية، الضاربة في جذور وأعماق التاريخ، هي الهدف الأسمى للدراسات والبحوث الأكاديمية، التي حركت الماضي بثقافته الشعبية، حركيّة هادئة متميزة، تنشد الحقيقة وتُعري أباطيل الغوغائية والتهريج، والتمسّح على عتبات الثقافات الدخيلة، التي لا تريد إلا الهيمنة والاستحواذ: " قضية العروبة بالنسبة لكل من يؤمن بالعروبة، هي قضية الأمة العربية بالنسبة لكل من ينتمي إلى هذا الكيان من المحيط إلى الخليج... قضية البناء والازدهار، لكل القيم العربية على كل الأرض العربية، إذ في تحريرها قيام هذا الوعاء، وعاء الأرض العربية المشتركة، كي تتفاعل فيه هذه القيم التي يريد لها الأعداء الذبول والاضمحلال والفناء".(17)

إن الاهتمام بالتاريخ، يعني من ضمن ما يعنيه صناعة الأنا من جهة، ومعرفة الآخر من جهة أخرى. وهذا يعني دلالة اكتساب المعرفة، والأخذ بالأسباب في التحولات الدلالية التي تصاحب تلك المجاميع التاريخية الظرفية، التي تتحول من الفعل والواقع، إلى كتل نصية تحمل تاريخ الأمة والشعب لا بل الإنسانية جمعاء، والتخلص من التاريخ يعني التخلص من الذات الفاعلة المميزة للأحداث والشواهد والوقائع والدلالات: " حقيقة التاريخ، أنه خبر عن الاجتماع الإنساني

الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك التاريخ، أنه خبر عن الاجتماع اللانساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات".(18)

ومن هنا يتحدث الكتاب عن قضية من أبرز القضايا، التي تشكل محيط الأفراد والجماعات، وتكسبها مهارة التلقي والانتماء، وهي قضية الوعي بالتاريخ، الذي ينشده أهل العلم والمعرفة والدراية، لأنهم يحتكمون بواسطة تلك المفاهيم التي يكتسبونها مع الاستعانة بالدربة والممارسة، إلى مزيد الكشف عن الهويات والانتماءات والأصول... التي بواسطتها يتركب الفعل المعرفي لكل عرق إنساني في هذه المعمورة: " إن الوعي بالتاريخ، إنما يمثل سلاحا من أكثر الأسلحة فعالية في بناء مستقبل الأمة، التي تجاوز أبناؤها حدود (القراءة) لتاريخها إلى رحاب (الوعي) بهذا التاريخ".(19)

إن القلق الذي يساور البشرية اليوم، من هذا الغزو الجارف الذي لا يبقي ولا يذر، إنما مرده القلق على التاريخ، بالمفهوم الديالكتيكي الخوف على الأنا، في ظل المساحيق البراقة القادمة من الشمال، والتي لا تريد أن تستوعب تاريخ الآخر، ولا حضارته ولا إرثه الثقافي والمعرفي، في ظل مزيد الهيمنة والافتقار

إلى بُعد التكامل الإنساني، الذي يحقق مفهوم:" **إنَّ أكرَمكُم عندَ الله أتْقاكُم**".

الذي تحمله رسالة الشرق للإنسانية جمعاء

: " إن حدوث حالة من الانحلال في المجتمع، أو تدهور سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي، تؤدي إلى التفكير في سبب هذه الحالة وكيف تدفع إلى التفكير في الماضي، ذلك أن التاريخ يستبعد المستقبل تماما...".(20)

إن الوقوف على عتبات حضارة الشرق، تستنهض أكثر من مسألة لغوية وعرقية، يجب أن ينبري للبحث عنها، أهل الاختصاص والدراية والمعرفة، أولئك الذين يحملون قلم البحث عن الحقيقة وترسيخ مفاهيم الادراكات العقلية، التي لا تنسحب وراء الخيالات وتجعل منها نظاما للحكم على التواريخ والثقافات والشعوب ومفاهيمها، في صناعة المعرفة والموروث الشعبي، الذي ينطلق وفق مفاهيم زغاريد الزمن وأحاسيس الحياة في أزمان لا يصلح لها إلا ذلك، ولا تقف على مشارب الفهم والعِشق النفسي والهوى المتخيّل، إلا إذا فعلت أو عايشت تلك المفاهيم والوقائع، حتى وإن كانت شاذة عن البعض في مفهوم ما، لكنها تبقى لصيقة المعرفة والحب عند الشعوب الصانعة والمنتجة لها، وهي بالذات وبالطبع الصانعة، في الوقت نفسه الداركة لكل ذلك، لأنها المنبع للتروي المذهل للإبداع والمنافسة والتطوير: " إن تأويل الكلام بمعانيه ومفاهيمه يرتبط ارتباطا كليا

بالموروث الشعبي الديني والأسطوري العالق بها، والتي لا يدركها إلا أصحاب العلم بها، لأنهم من صانعيها أو فاهميها".(21)كونها رسخت في عقولهم ومن بنات أفكار من سبقوهم من أهليهم وذويهم.

إن الوقوف عند عتبات الإنية والهوية، يستدعي في الإنسان أكثر الجوانب مفهومية واستغراقا للفعل الحدثي الثقافي، خصوصا ما تعلق بالموروث حين يصبح عشقا وهوى في النفس والروح، ومن ثم يمتلك جوانب الإنسان، ويصهره في عالمه الحقيقي المتخيل مع الماضي السحيق، الذي يهز أركان النفس البشرية هزا : " ما أروع أن يعبّر المرء عن عالمه، ويغرق في عوالم جديدة لا مكانة فيها للعقل، ولا سلطان فيها للمنطق، وإنما السلطان كله للخيال المجنح يحلق إلى أقصى الحدود، ولكن في فضاء بدونما حدود".(22)

إن هذا السلطان من الخيال ببراعته ونظارته، لا يعفي الدارس من التشبث والوقوف على مواطن الحقيقة، وفحص ما يجب أن يُفحص، وقول ما عليه الدليل والبرهان... حتى يتحول التراث إلى ينابيع صافية رقراقة عذبة... لذة للشاربين، تدرّ النفع، وتدفع للمزيد من الاستجابة والتميز. وهذا ما ذهب إليه سانت بوف حيث أكد على أن : " الثقافة الشعبية بسلالاتها المتعددة (قصة، خرافة، شعر...) إنما هي من طبيعة الإنسان، بل هي شكل للإبداع ملازم

لروحه، وهي (أي هذه الأجناس) توجد في كل الأمكنة والأزمنة والبلدان...".(23)

وعليه يعتبر أن مسيرة الإنسان مع التاريخ والإنية والهوية، هي مسيرة الذات وإثبات الأنا، في خضم التجاوب مع الآخر، في حدود ثقافته وإمكاناته الإدراكية والمعرفية: " الثقافة الشعبية خارقة تقوم على أساس تاريخي معرفي، يحمل دلالات الأنا في خضم الآخر" .(24)

إنتلاقح الثقافات، واستجابتها لبعضها البعض، في كنف التحاور المعرفي الهادف والنبيل، والذي يرمي إلى خلق فضاء معرفي، إنساني متكامل، كما هو الحاصل بين الثقافة العربية عموما والثقافة الأمازيغية المتأصلة منها خصوصا... في شتى مناحي المعرفة اللغوية الأدائية والإجرائية، والمعرفة اللغوية النسقية ذات المعاني والمقاربات السيميائية النصية، التي تهدف إلى إثبات مقاربة الأصل والعِرق، مع مقاربة اللغة والتشكيل النحوي والصرفي لها، أو في مقاربة الهوية والانتماء الأصيل الواحد المتجذر، في حقب الزمان والمكان والتاريخ: " إن دلالة الماضي، تثبت هوية البعد العربي الأمازيغي في الأصول والمسارات، ذلك أن كل ما بين أيدينا يثبت هذا الأصل في انتمائه وتقاربه وتجاذباته المعرفية والغوية".(25)

إن بعض الدراسات التي ذهبت وتذهب إلى الكشف – كما تعتقد- عن أصول الثقافة الأمازيغية، إنما هي شكل صريح من أشكال زراعة التفرقة والبغضاء بين أبناء الأصل الواحد، التي حوّل التاريخ الاستدماري(26)

مساراتها إلى توافقات، وفق الرزنامة الغربية، التي دفعت وتدفع ببعض المبهورين المخدوعين، إلى تبني فكرة: (الأمازيغ) من الجنس الحامي وليس السامي، وهذه دعوة مردودة على أصحابها بالواقع والدليل، كون التراث المشترك والجغرافيا الواحدة واللغة ذات الأصول المتوافقة في لهجاتها القديمة، الضاربة في عمق التاريخ ،تثبت أن تلك التوازنات ما هي إلا شظايا نحاسية، وفق معايير خداعة أكثر منها حقيقية ومتأصلة:" إنّ بنية اللغة العربية والأمازيغية، بنية ذات أصل واحد، ذهبت بها السِنون إلى بعض المفارقات، التي كانت سبب ذهاب البعض إلى إكسابها صفة الانفرادية، والأصل غير العربي العريق... فقد أثرت الهجرات القديمة على ما كانت من ظروف الترحال والتنقل، واختلاط المهاجرين من بلد اليمن إلى شمال إفريقيا... ببعض اللغات الإفريقية، التي استفادت منها القبائل المهاجرة وضمتها إلى قاموس لغتها، الذي تكوّن من جديد واستوعب ثقافة الأصل، مع الثقافات التي عايشها المهاجر، وهو في طريقه إلى إفريقيا الشمالية، مرورا بالصحاري والجبال والسهول...الخ(27)

3- الازدواج اللغوي.. وإشكالات القاموس الشعبي المُتداول

من المفاهيم المطروحة قديما وحديثا عند دراسة القضايا التراثية وأصل اللغات القائمة أو المندثرة، إنما يحصل ذلك عند حدود تداول الفرضيات والتخمينات التي عادة ما تنتج، بما يتوافق مع ميول المؤرخ أو الكاتب أو الباحث المنقّب عن التراث وتفاعيله وأبجدياته ومجاهيله... كون البعض من الكتاب، يجنح ببعض الدراسات من واقع الواقع، إلى واقع الهَوَس المعرفي، الذي لا يستند إلى دليل، ولا يقع في موقع للعقل وفرضياته وأحكامه، ويعيد الأمر في النهاية إلى إحداث عمليات، لا علاقة لها في أكثر الأحيان بالحقائق والمعارف الأصيلة، التي تميز الغثّ من السمين، وتخرج التراث من براثين التوافقات الظرفية والسياسية، إلى الحقائق التي تؤكد المعرفة وتؤصلها. لذا راحت الكثير من الشعوب تتخبط في أتون المجاهيل حين تتناول تراثها، بل أصبح من الطابوهات المحرمة التي لا يقترب منها إلا القلة، التي تحرص على دفع عجلة الفكر- كما يعتقدون- نحو النهوض والسؤدد والتميُّز:" إن الملمح الانقسامي الثنائي، لا يقتصر على تراثنا العربي فحسب، بل يكاد أن يكون ملازما عاما لكل أصناف التراث البشري، وما التناقضات الصارخة في كل ذلك، إلا دلالة على أحقية التنقيب والتشبث والتعليمية".(28)

إن بعض هذه المفاهيم، هي التي رسّخت أشكال الازدواج اللغوي وبعثت به إلى مساحيق الحداثة والعولمة، وصنعت منه مجدا قائما دون عنوان و لا مفهوم و لا شعبية:" ومن هنا يكمن موضع الخطورة في الازدواجية اللغوية بكافة أوجهها، مهما كان لهذه الازدواجية من منافع وقتية، شأنها في ذلك شأن المسكِّن الذي يُعطى للمريض ليخفف عنه الألم، لكن لن يزيده إلا مرضا إلى مرضه، وسوءا إلى حالته الصحية...وأن ذلك سيؤدي إلى تعريض الهوية العربية وضربها في أعظم مفصل من مفاصلها وهي لغة القرآن الكريم".(29)

وحين الوقوف على منابر هذه الحقائق، يمكن استخلاص النتائج من واقع ما يعرف بالاستلاب اللغوي، والفهم الخاطئ لمحاولات تشويه الإنيّة والأصالة، حتى يتحول الفرد من مجرد مستهلك للبضاعة، إلى مستهلك للمعرفةواللغة، المشوَّهة والمشهوِّة لمنطقه وعراقته وأصالته:" إن الدافع لما وصلنا إليه، هو ما أفرزته الحضارة المعاصرة من تقارب بين الأفراد والشعوب(إذ تحول العالم إلى قرية صغيرة)، ومما أعان على ذلك الانفتاح العالمي، في ظل ثورة تكنولوجية لم يسبق لها نظير في إعلامها وتسلطها المعرفي والتفسخي".(30)

ومن البديهي في هذا الظرف والمجال، أن نقرأ لوحات خالدة من صميم الحضارات القديمة التي حافظ عليها أهلها، و أنتجوا منها ماضيا عريقا، أصبح

نموذجا للكثير من شعوب وأمم الأرض، كما هو حال الحضارة الصينية والفرعونية واليونانية لا على سبيل الذكر فقط، وإنما على سبيل الحصر والدراية ورؤية المعرفة للمعرفة، وثمة الأصالة التي يحتكم إليها الناس، كونهم بفطرتهم يميلون إلى معرفة الأمجاد، وصياغة تاريخ عريق لها، يعتقدون – وهذا الأصح- أن شيمهم وقيمهم، إنما تأتي كثمار يانعة، من ذلك التاريخ الأصيل ، الذي تغنى به الشعراء أو قصه القُصاص، وتناوله أهل السير والتواريخ... لإثبات القرب المكاني والزماني، لتاريخهم الذي يحوي جزءا من الفكر البشري العريق، والمتناسق في مساحات الزمن الغابر، والذي يحكي أسطورة الأجداد والأمجاد والبداية والخلود... :" لكل أمة عريقة في المجد والحضارة، ماض تتطلع إليه وأبطال تنسج حول أسمائهم هالة من التقدير والقداسة، وتسجل آثارهم في طيات الكتب، وتحفظ ودهم في صميم القلوب، لذلك تمجد بطولاتهم النادرة بما تصوغه لهم من قصص عجيبة، تنوّه بشجاعتهم الخارقة، وتسبغ عليهم من سمو الأخلاق وجودة المزايا، ما يرفعهم إلى المستوى الرفيع من النماذج الأساسية المتميزة".(31)

إن إشكالية الموروث الشعبي المتداول في حظيرة بلدان المغرب العربي الكبير، من الموضوعات الدسمة، التي ثار حولها الجدل، وبالتالي كثر نسّاكها وحكامها

و أصحاب الأقلام منها، وراحوا يذهبون مذاهب شتى، في مختلف الأطروحات التي يتناولونها، ظنا منهم أن ذلك إنصافا وحقنا لدماء الحقيقة، ومنابع الغيث والعطاء... وما ذلك في أصل الحكاية والأمر، إلا اجتهادات تقترب حينا من العطاء الفعلي للحقيقة، وفي أحيان أخرى تَنحَى في المواعيد مع التاريخ والقيم والأهداف.

لقد كتب الأستاذ المؤرخ / محمد علي دبوز عن الأمازيغية وموقعها من الإعراب بالنسبة للغات الأخرى، وتبين له بعد الدراسة المنصفة والقريبة إلى المنطق والعقل، أنها لغة سامية انبثقت من بلاد اليمن، ويرجع أغلب من تفحصها ودرسها وعرف حقيقة البنية اللغوية وتراكيبها، أنها تنتمي أكثر ما تنتمي إلى قواعد اللغة العربية وبنياتها المفاهيمية المترجمة للحال والظروف والمعنى (32).

وفي صميم ذلك، تظهر الآثار العامة، التي يعتقد البعض أنها من بواقي الازدواج اللغوي وتبعاته، التي تهز الكيان اللغوي وتفتته إلى أصول ومعارف وغايات:" لقد استنتجنا من التاريخ المغربي القديم، حين الفتوحات الإسلامية، أن زعيمة الأمازيغ الكاهنة، أمرت أبناءها وجندها أن يدخلوا مع هؤلاء الفاتحين، لأنهم يختلفون عن الرومان والوندال والبيزنطيين، الذين استعمروا هذه الديار ،وضربوا كلما عثروا عليه من حضارة ونشوة حياة".(33)

إذا صَدُقت الأفكار التاريخية، التي حملتها مثل هذه الرسائل من قادة أمازيغ أعرق ما يكونون في الفحولة والشجاعة والانتماء...بأن يقاتلوا الفاتحين قتالا شرسا؟ ثم لم يلبثوا حين تعرفوا عليهم حق المعرفة، وأدركوا توجههم، أن يأمروا أتباعهم وأحفادهم أن ينظموا إلى مسيرة الإيمان والانتماء... الإيمان لكونهم يحملون الحقيقة الخالدة، والانتماء لكونهم يتشابهون في المربط والمطلق، إن على مستوى الأفكار أو التطلعات أو الأهداف، وهناك مثل أمازيغي يرسخ ويشرح هذه الفكرة، يقول:" الرّيحَتْأنيوُمَاكْ، آتشومَّذْ آني هَلَّهْ".

معناه:" رائحة الأخ تعرف كلما شممناها وأدركنها". إذا كان الأمر، ينبني على هذا الأساس، الذي يقدّر من خلاله الفرد ويعرف به الانتماء والأصل، فإن هذا ما حدث بالنسبة للعرب من قبيلة:(حمير) الذين هاجروا من بلاد اليمن في الأزمنة القديمة قبل الإسلام، إلى بلاد المغرب الكبير واستوطنوا فيها، وأصبحوا كيانا يمثل رغبة المشرق في الانتماء والهوية في المغرب:" إن البعد الجغرافي والزمني والتاريخي، يفعلان فعلتهما في الإنسان وفي لسانه وتفكيره، إن طال أمد البعد والفراق، وهذا ما حصل لشعوب المغرب الكبير، التي عانت ويلات الرحيل من بلاد اليمن، ليستقروا في جبال وغابات وسهول المغرب العربي، يجدون

ضالتهم المادية نعم، لكنهم يدفعون ثمن بعدهم، في اللسان وبعض العادات والتقاليد".(34)

وهذه الغربة الفكرية، تتبعها غربة أخرى لغوية، حيث كان للتأثير الذي حدث للغة المغرب الكبير، الأثر البارز في المقوم اللغوي ككل، لكن يبقى أن نشير دائما وبإصرار، على أن التركيبة اللفظية للمصطلح الأمازيغي، وإن خضع للازدواج اللغوي من الفرنسية حينا، والاسبانية حينا آخر، والتركية كذلك في العهد العثماني... إلا أن النسق العربي الأصيل بادٍ وحاضر فيها بالتمام والكمال، غير أن بعض الاستبدالات التي حدثت إنما هي كفعل اللغة اللاتينية مع لهجات أوروبا، التي تحولت إلى لغات بمرور الزمن وأصبحت بنيتها تزداد رسوخا واتساعا، كون الشعوب تحتك بمحيطات معرفية قريبة منها، تنتج على منوالها ما يشبه المعرفة الجديدة، بعيدة عن المألوف القديم، الذي كان متداولا.

يذكر الأستاذ محمدعلي دبوز أيضا، أن اللغة الأمازيغية لو تدبرناها جيدا، لوجدنا أنها لهجة من اللهجات العربية القديمة، التي عفا عنها الزمن وهجرها الناس، واحتفظوا بها في مغربنا، ولا أدل على ذلك، من أن أهل المغرب الكبير والبلد الأصل، ما زالت طبيعتهم وطريقة حياتهم، مع بعض الاختلافاتتكاد أن تكون واحدة ومتطابقة.(35)

وهل نظرية الازدواج اللغوي تعني البعد عن الأصل الحقيقي والمنبت الفعلي للأمازيغية وأهلها؟

إن جل من كتب في هذا الموضوع، يتحدث عن أن الأصل في المنابت الأولى للقيم والأفكار واللسان...ومن ثم يتحدد مفهوم المكان والزمان وصيرورة الحياة؟

إن الذاكرة الشفهية العربية تداولت الكثير من الأفكار والمفاهيم، صاغها الناس أشتاتا في الأقطار التي تشكَّل منها المحيط العربي العام، وأضِيف لها ما أضيف وحذف منها ما حذف.(36)

وهو الذي أكد أنه لا مجال لليقين إلى الرواية الشفوية، وأن الحق واليقين بدأ مع غار حراء(37)حين نزول الوحي على النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم)، لكون :" الرواية الشفوية لا تهتم بالتفاصيل المقصودة في النص ولا تحافظ على الخطوط الهامة التي تركت أثرها في الأنفس والقلوب كالخذلان والقتال...وإن تغيرت الروايات في بعض الأحيان".(38)

والثقافة الشعبية الأمازيغية في عمومها، قائمة على أساس البعد الشفوي الذي يحرك مواطن الإبداع فيها، نحو المجاهيل القديمة التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ، وبالنظر إلى أصلها التأصيلي يتبين للدارس حقيقة مالها من بُعد معرفي عربي عريق وأصيل، فقد حمل لسان العرب المحيط للفيروز آبادي،

الكثير من المصطلحات التي تحمل دلالات معنوية في عمقها العربي الأصيل، فمثلا مصطلح (أسَبْسِي) في الأمازيغية معناه في اللغة العربية:(ما يُدخَّن، أو ما يدخَّن به) ومصطلح: (أخُومَاعْ)، الذي يحمل المعنى نفسه في اللغة العربية، وهو من فقد توازنه وأصبح لا يتحكم في تصرفاته، وغيرها من الأمثلة الكثير والكثير...فاعتقادنا أن ذلك يدخل في أن اللغة العربية هي التي شكلت محيط اللغات السامية، حيث انحدرت من أصلها الذي ينتمي إلى تراث ولسان الأنبياء السابقين (عليهم الصلاة والسلام).

ومن المعروف أن الكثير من الأمم تأثرت بلغة الشرق (العربية) لكنها تختلف في أصولها عن لغة الضاد، ولذلك جاءت في قواعدهابغير قواعد ونظم اللغة العربية: ((كاللغة الفارسية التي تنتمي إلى لغات الهند أوروبية التي تخضع للنظام الصرفي لتلك المجموعة اللغوية، لكنها لا تنتمي للنظام الصرفي العربي، كما هو عليه الحال بالنسبة للأمازيغية، التي تظهر عبقريتها في عبقرية البنية المتكاملة مع اللغة العربية، إن على مستوى القواعد أو التصريفات أو الاشتقاقات ...الخ)).(39)

وحين نتأمل الإبداع اللغوي في الأمازيغية، تستوقفنا مجموعة إدراكات تفهم من خلالها، حجم التبادل اللغوي ذا الأصل المعرفي الواحد مثلقولنا : " يَتْشَى،

تَشْتَى، أَتْشِيغْ، أتْشِينْ، هَتْشِيمْ" نلاحظ أن المثنى مجموع، كما يحصل في اللغة العربية أحيانا، وهي قاعدة شاذة أخذت بها الأمازيغية، كون أنتما تعني: (كَنْوي) وهي تنتمي إلى قاعدة الجمع، أكثر من انتمائها لقاعدة المثنى.

لا تحصل هذه المعرفة، إلا لأولئك الذين خبروا حقيقة المعرفة اللغوية لكل من الأمازيغية والعربية، التي تنحصر القاعدة العامة لهما في نبر صوتي وقاعدي، لا يختلف إلا في بعض الجزئيات والثنائيات:" لأن هناك تشابك وتداخل بين الألفاظ العربية والأمازيغية، وهذا التشابك كلي أحيانا، وجزئي في أحيان أخرى، وأحيانا يحدث الانقلاب اللفظي في مؤدَّى الأصوات أو الحروف، كقولنا في الأمازيغية: ((أعتْروسْ)) وفي العربية ((التيس)) أي جيء ببعض الحروف وتم الاستغناء عن البعض الآخر".(40)

ونجد هذا أيضا حين نتحدث عن بيت الشَّعر، الذي يقيمه البدوي في الصحراء:" الخيمة"، فينطق الأمازيغي هذا اللفظ ببعض التقديم والتأخير ، فيقول: ((أَخَّامْ))، أي البيت.

إن نظرية الازدواج اللغوي، إن رُكِّبت على أساس الفهم العميق لجذور الثقافات واللغة، أنتجت تراكمات معرفية، تحتاج إلى استفاضات في الدليل والبرهان والمقارنات والمقاربات... وكل ما من شأنه أن يرسخ ثقافة المعرفة، وثقافة

التقارب الايجابي، الذي ينبني على الحقائق والمفاهيم والغايات لأن : " اللغة ملكية عامة، تنقل الأفكار والمعاني بين الأشخاص والأجيال، وأحيانا تكون ملكية خاصة، بل شديدة الخصوصية، لا سيما إذا كانت الكلمة المستخدمة تحمل أكثر من معنى".(41)

وهذا الحاصل في منظومتنا اللغوية في بعدها الانتقائي أكثر ..وأكثر.. فحين نتأمل معارف الأفراد، وثقافة المجتمع في معارفه وعاداته وتقاليده، ندرك بلا ريب أن ذلك يشجع فعلا على التقارب والتمازج الموجود أصلا بين هذه الفئات، فمثلا في المجتمع الأمازيغي، يحتكمون إلى مجموعة قيم اجتماعية هي من تراثهم وتقاليدهم العريقة الضاربة في عمق التاريخ، وقد أوردها المؤرخ هيرودوت في تاريخه، على أن مجتمع المغرب(لوبيا القديمة)، هو مجتمع قبلي متكاتف يتعاون الفرد فيه مع أخيه، ويذوب في النطاق الجماعي و شيخ القبيلة له السلطة العليا في أي معرفة وقرار.

ألم يكن هذا دأب القبائل العربية في بلاد العرب مجتمعة؟ لقد تحدث هيرودوت عن المجتمع الأمازيغي في شمال إفريقيا، كما لو أنه يتحدث عن أي مجتمع عربي آخر في نطاق نظمه الاجتماعية و السياسية والمعرفية المتداولة.

والذي يلفت الانتباه أكثر، أن المجتمع يذهب إلى تسمية بعض أفراده قديما باسم (العَرْبي)، تبركا بهذا الأصل العريق، الضارب في جذور التاريخ، والمنتمي لعشق المحبة والأصل.

وإذا تم الحرص على المتداول أكثر، نجد أن الأعراف والتقاليد في المنطقة العربية ككل، تعتمد جملة من الأنماط السلوكية في الأداء والمفاهيم والتركيبة الاجتماعية، يطابق كل المطابقة لما هو عليه الحال، بالنسبة لبقية الشعوب العربية، وهذا ما أشار إليه (أندريه ميكال).(42) فمثلا هذا التقارب العربي يظهر في :" الغناء الجماعي والفردي، وإطلاق الأعيرة النارية والزغاريد، تكثر وتنشط مصاحبة شعائر الانتقال، أو مراحل أطوار العمر، أو الأفراح أو الأقراح...الخ".(43)

كل ذلك إنما يجعل من الأصل الواحد، وإن تفرعت سبله، إلا أن ينابيعه واحدة، وفق خواتيم الزمان والمكان والظرف والحال، دون تعصب أو استئصال لرحم أو عرق أو هوية أو إنية أو أصالة.

4- اللغة وبنية التركيب المصطلحي في العربية والأمازيغية

من المقاصد الأساسية، التي تفتحها الدراسات اللغوية، فكرة الحضور البنائي للمصطلح، الذي يحمل قيمة الدلالة المعرفية للذات والمنشأ الذي تفرعت منه

ودلت عليه، وهذا يدخل في إطار : " التعبير الارادي ويشمل جميع الوسائل الإرادية، التي يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعاني، التي يود وقوف غيره عليها".(44)

بتعبير ابن جني- هي الوقوف عند حقائق المعرفة، لوصول الأصوات التي هي عبارة عن معارف إلى الآخرين، قصد التبليغ والمشافهة والمماحكة.

واللغة بهذا المفهوم، هي وسيلة التواصل والترابط بين الناس، ولا فرق في ذلك بين لغة وأخرى، وإنما الفروق تكمن في حجم القاموس اللغوي، والاشتقاقات التي يتقبلها النمط اللغوي دون الآخر، لذلك فهي: "وسيلة إنسانية خالصة، وغير غريزية إطلاقا لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات، عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية".(45)

ويراها د- علي عبد الواحد وافي (أي اللغة): " على أنها تعبير إنساني، تأخذ طرقا شتى للتعبير عن الانفعالات، أو التعبير عن الوضع بما يشمله من وسائل وأدوات ...الخ".(46)

واللغة بمثل هذه المقاييس والأدوات، التي تحرك الصيرورة الإنسانية وتبعثها للتداول والمعرفة هي: " أداة مطلقة ورسالة للإبلاغ، لا تصدر إلا عن أداء

واحد، و لها مدلولات متعددة حسب مستقبِلها وسامِعها...أي أن اللغة سلطة في ذاتها".(47)

إذا سلطة اللغة، بالمفهوم العام هي سلطة الوجود والأنا، وحق للعربي والأمازيغي، أن يقرأ الإنسان من خلال وجهه، أي ملامحه ومحياه، فيقول الأمازيغي (أرْقَازْأقّوذَمْالنَّسْ))، أي الرجل من خلال وجهه، والعرب يفهمون أحسن من غيرهم هذا المعنى اللغوي لكلمة :" الوجه" الذي يشير إلى شخصية الإنسان وكرامته".(48)

إن مثل هذه المفاهيم المتطابقة، تدخل في إطار التشاكل الثقافي واللغوي بين العربية والأمازيغية، كون المنبت الأساسي واحد، والأصل المعرفي كذلك.

فحين نقرأ الكثير من المصطلحات الأمازيغية، نجد أنها تتطابق أحيانا مع المصطلح العربي وفي أحيان أخرى، لا تفرق إلا في بعض ملامح التعريف أو بعض الزيادات اللفظية، أي حين يتم فحصها بدقة، تظهر أصولها ومنابتها العربية الحقة.

فمثلا كلمة ((ثادَّارَثْ)) التي تعني الدار، نجد أن (ثا) أداة للتعريف في بعض اللهجات الأمازيغية، وأحيانا تستبدل (بالتاء) وأحيانا (بالهاء)، فنقول (تادارث) أو (هادارث)... المصطلح بعد التعريف يتكون من الدال، الألف ، الراء وتاء

الفصل، يعني (الدار)، التي تتكون من (ال) التعريف، والدال والألف والراء، المطابقة للفظ الأمازيغي وتركيبته.

وإن عدّدنا المصطلحات في هذا المجال، فهي كثيرة جدا، لا يكاد جذر مصطلح يبتعد عنها أساسا، إن على مستوى ألفاظ الصفة أو النعت، أو الاستقصاء أو التميّز.

فحين نقول مثلا: " يَتْعَشَّى" أي تناول طعام العشاء، فالمصطلح: " يَتْعَشَّى"، نجد أن جذوره من العشاء (عين، شين، ألف)، ومصطلح "يَكْلَى" أي أكل، يعني حرف: الكاف، اللام، تأخير الألف في الأمازيغية، وتقديمها في العربية، وهذا من موروث التشاكل أو التبادل في مراتب الحروف. فالماء، يعني في الأمازيغية (أمانْ)، ألف، ميم، في العربية همزة، وفي الأمازيغية نون ، وهذا يخضع أحيانا لنمط الكلام، الذي عليه الناس في موطنهم أو زمانهم، كالجيم عند المصريين، والقاف عند اليمنيين، والكاف عند أهل العراق...وهكذا...

بمعنى يظهر التناسق اللغوي، الذي ينتمي لنفس الجذر في التركيب والمفهوم، وإن ظهر بعض الإبدال، إلا أن ذلك يجعل من العارف المتميز، استطاعته على امتلاك ملكة القدرة على الفهم والترجيح واستخلاص النتائج.

يمكن أن يكون هذا على مستوى التركيب اللفظي، وفي كل تقاسيم اللغة في قاموسها المعرفي الدلالي والتداولي.وبالنسبة للبلاغة، فإن حجم المعنى البلاغي في الأمازيغية، يتركب وفق أحجام ومقاييس البلاغة في اللغة العربية، إذ تتضمن الكناية والاستعارة والمجاز والتقابل والإطناب... وكل هذه المسوّغات البلاغية المتعددة.

فنقول في الأمازيغية مثلا: " يَتْشِيشْيِهَكْرومْثّالنَّسْ"، أي أكله من رقبته، كناية عن أنه أنهى أمره بالتمام والكمال، وأنه عاقبه أشد العقاب.

ونقول مثلا في باب المجاز:" حين سأل أحد الأشخاص في المدينة، شخصا قدم من الريف قائلا له: كيف تركت المنطقة الفلانية؟ فقال له القادم، تركتها كعين القَمْري (آمْتِطْأَمَّزْدوذْ) (طائر عينه شديدة الصفاء والنظر). ثم سأله: كيف تركت المنطقة الفلانية حين مررت بها؟ قال له القادم: أَرْزْ ضَارْ إيثْغَاطْ النَّكْ هَدْجَتْ(أي أكسر رجل معزتك واتركها) ثم قال له: كيف تركت المنطقة الفلانية، وأنت تمر بها؟ قال: " ما يَتْثَبَّ ْعذيكْأوغَرْزولْ النَّكْ، أنْغِيثْ"، أي إذا كان معك كلبك في السفر فاقتله.(49)

يعني أن مجاز اللغة الأمازيغية، لا يفترق في أصوله ومنابته، عن مجاز اللغة العربية، فقوله: تركتها مثل عين القمري، تعني أن السماء لا تنتظر منها في الوقت الراهن مطرا، فهي صافية كعين طائر القمري.

وقوله: أكسر رجل معزتك، دليل على كثرة العشب في المنطقة، وأن المكان الواحد للقطيع يكفي لإشباعه.

وقوله: " إذا كان كلبك معك فاقتله، كناية مجازية، عن الجفاف الشديد، الذي يضرب المنطقة، حيث أن الإنسان في هذا المكان، لا يستطيع على قُوته، فكيف يُعيل غيره.

إن الفرضيات اللغوية، في الحقل الدلالي والمعرفي، تجعل من النظام اللغوي في قواعده ونحوه وصرفه، إن في العربية أو الأمازيغية، النظام الذي يتوافق مع القاموس اللغوي وثرائه بالنسبة للغتين،وينبطق الأمر والحال في القاعدة اللغوية بين العربية والأمازيغية، حين يتعلق الأمر مثلا: ببنية المصطلح في تركيبته الحرفية، فكلما تشكلت الكلمة من عددأزيد من الحروف، كلما عمّقت ووسعت المعنى أكثر... وهذا ما يبدو في العربية من قولنا مثلا : (أصبر). وقولنا : (اصطبر). فالصبر في تركيبته العادية، يعني من ضمن ما يعني في أساسه: التحمل. وحين نضيف(الطاء) للكلمة يعني: شدة التحمل مع التعب والمشقة.

وهكذا مع جميع بواعث الكلام وأدبياته اللغوية في القاعدة النحوية العربية.

والأمر نفسه ينطبق على القاعدة في الأمازيغية، فحين نقول مثلا: (يَرْشَلْ) أي: (تزوج). وحين نقول : (يَسَّرْشَلْ)، أي: تزوج بمشقة وصعوبة وجهد لا يُطاق، قد يكون من التكاليف الباهظة أحيانا، وقد يكون من شدة فاقته وقلة حيلته.

والمعنى البنيوي للغة في هذا الحال، جرى عليه ما جرى على السياق البنيوي في قاعدته اللغوية في العربية.

لذلك أميل كثيرا في دراساتي إلى القول: على أن الأمازيغية هي فرع من العربية، وأن الثقافة الشعبية الأمازيغية، هي من أصول ومنابت عربية ثرية، قائمة المفاهيم والأعراق والأصول، فما نشهده في مواسم الأفراح والأقراح في كل البلاد العربية إنما ينتمي في أسسه وجذوره، إلى حركية ثقافية واحدة، ينعم فيها الفرد بالموروث الشعبي، الذي يؤصله ويؤهله للتركيبة الدلالية إن على مستوى القصص أو الشعر...الخ

فمثلا شخصية سيف بن ذي يزن أو عنترة بن شداد وغيرهما...موصوفة بدقائقها وأحداثها في التراث القصصي الأمازيغي، ويسرد على ألسنة القصاص الشعبيين في الليالي والمواسم والأحزان والأفراح.

وأنشودة الجازية الهلاليه، بقصتها الطريفة مع أذيابالهلايليلدلالة هذا المغنم الكنزي العظيم، الذي تزخر به هذه الأمة من محيطها إلى خليجها، بدءا باللغة ونهاية بالطقوس المعرفية عن طريق العادات والتقاليد والأفكار والأهازيج والأغاني...الخ

لا يمكن أن يستقيم الأمر، إذا انسلخ الفرع عن أصله، لذلك فشل أولئك الذين يدّعون أن الأمازيغية لغة حامية تنتمي إلى لغات الهندوأوروبية، فشلوا في التعريف بما يدّعون، وفي التأريخ لما أرادوا أن يؤصّلوا ويعرّفوا...لكون دلائل اللغة بمشتقاتها واشتقاقاتها، تؤكد اللسان العربي القويم لهذه الأمة التي كرمها الله تعالى بقوله: " كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**"(50)...

ورسالتها بلغتها خالدة إلى يوم الدين، وهذه عناوين للمحافظة على الأصالة والهوية، والبُعد اللغوي الدائم والمستمر، في ظل المنافسة الشرسة للغات الأقوى حضاريا والسائدة في عالم اليوم.

خاتمة:

ويمكن استنتاج المقاربات المعرفية التالية حول الازدواج اللغوي في بلدان المغرب العربي، بما يكفل الرؤية الواضحة حول أهم الأركان والأسس التي تعتور هذا الجانب القاموسي اللغوي المركب من أكثر من لسان:

أ–إن اللسان الأمازيغي في بُعده التاريخي والديني والثقافي، ينتمي إلى منظومة بلاد الحجاز ونجد واليمن، وذلك من خلال التوظيف اللساني للحرف والمصطلح والتركيب النصي العام.

ب–إن حضور الازدواج اللغوي، جاء على أثر الاستهداف المبكر لبلدان المغرب العربي من قبل الاستعمارالأرومتوسطي.

جـ–إن الأثر الدلالي للسان المغاربي، يكمن أكثر ما يكمن في شواهد الموروث العربي إن على مستوى تصريف المعاني والدلالات، أو على مستوى أبجديات التخاطب والحوار والنص، والعادات والتقاليد السائدة.

د–يسعى المهتمون في بلدان المغرب العربي، إلى إيجاد أنموذج يفعِّلُ حركية العودة باللغة المتداولة في البلدان المغاربية إلى حظيرة اللغة الأم، التي هي العربية لغة القرآن الكريم واللسان المبين.

هـ–المستويات الخطابية في بلدان المغرب العربي، تجاوزت حدود التركيبة اللسانية الموروثة عن المستعمر، إلى فقه الواقع ومحاورة بُعد الإنية والأصالة

والوثوق بهما لصناعة الفعل الحضاري، لأن اللغة تكتسب قوتها من قوة أهلها، وضعفها بطبيعة الحال من ضعفهم، وهذا ما أدركه أهل العلم والبحث والدراية.

قائمة المصادر والمراجع

1- ابن خلدون (عبد الرحمن) – كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- دار الكتاب اللبناني- بيروت- مج 1 – ص3 -4

2 – ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي) – لسان العرب المحيط- قدمه الشيخ عبد الله العلايلي- أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة :يوسف خياط دار الجيل بيروت. دارلسان العرب بيروت- مج 1 – مادة حضر – ص 658/ 659

3- د- عبد المالك مرتاض- الميثولوجيا عند الهرب (دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة) – الدار التونسية للنشر – المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- ط1989 – ص 6

4- سورةالحجرات - الآية 13

5- ينظر / مالك بن نبي – شروط النهضة – دار المعارف- بيروت.

6- د- محمد الغزالي – تراثنا الفكري في ميزان الشرع- دار القلم بيروت- ط2008

7-بتصرف / جورج بالانديه- السلطة والحداثة – تر/ هاشم صالح- مجلة الفكر العربي المعاصر/ عدد (41) – 1984 – مركز الانماء القومي- بيروت- ص22

8- د- قاسم عبده قاسم – في تطور الفكر التاريخي- ص5

9- بتصرف/ فتحي التريكي- رشيدة التريكي- فلسفة الحداثة- مركز الإنماء القومي- بيروت- ط1992- ص20

10- مطاع صفدي/ نقد العقل الغربي (الحداثة وما بعد الحداثة) – مركز الانماء القومي- بيروت- ط1- 1990- ص 63

11- فارق خو رشيد – الموروث الشعبي – دار الشروق – القاهرة – بيروت – ط1 -1412هـ /1992 م – ص 06

12- مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية- جامعة منتوري- قسنطينة- الجزائر- عدد37 – ص45

13- بتصرف/ فارح مسرحي – الحداثة في فكر محمد أركون- الدار العربية للعلوم بيروت- منشورات الاختلاف –الجزائر- ط 1- 1427هـ- 2006م- ص 54 – 55

14- محمد أركون- قضايا في نقد العقل الديني- تر/ هاشم صالح- دار الطليعة- ط1- 1998 - ص96

15- كمال عبد اللطيف- الحداثة والتاريخ – إفريقيا الشرق – المغرب – ط1- 1999-

16- د-محمد عمارة- الوعي بالتاريخ (صناعة التاريخ)- دار الرشاد- القاهرة- ط2- 1417 هـ - 1979م – ص33

17- د- محمد عمارة- الوعي بالتاريخ- مرجع سابق – ص 78

18- ابن خلدون (عبد الرحمن) – المقدمة- طبعة – كتاب التحرير- القاهرة – ط 1966- ص 14

19- د- محمد عمارة- الوعي بالتاريخ- مرجع سابق – ص33

20- د- رأفت الشيخ – تفسير مسار التاريخ (نظريات في فلسفة التاريخ) – عين للدراسات والبحوث – القاهرة- ط 1420هـ – 2000م – ص28

21- فاروق خو رشيد- الموروث الشعبي- دار الشروق القاهرة- بيروت- ط1 – 1412هـ – 1992م – ص68

22- عبد المالك مرتاض – الميثولوجيا عند العرب (دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة) – الدار التونسية للنشر)- المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – ط1989 م – ص5 (MTE

23-St .Beuve. Causeries du lundi.Flarian.P 242

24- المرجع نفسه ص 15.

25- محمد حجازي – شعر المعارك من البعثة النبوية إلى نهاية الخلافة الراشدة- رسالة الماجييستير- مخطوط بكلية الآداب واللغات- جامعة باتنة- الجزائر – 1990-1991 – ص 185

26- (مصطلح أطلقه الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم في مجلة الأصالة التي تُصدرها وزارة الأوقاف الجزائرية في السبعينيات من القرن الماضي- على المستعمر الفرنسي- وطالب بإلغاء مصطلح المستعمر إلى المستدمر). (ينظر مجلة الأصالة – الجزائر – عدد 7-8-9-الخ...)

27- مقابلة خاصة مع الدكتور/ الطيب بودربالة- جامعة باتنة - يوليو 2011

28- بتصرف- شوقي عبد الكريم- الشعر الشعبي الفلكلوري عند العرب- دار الحداثة-بيروت-ص 83.

29- د- محمد بن سعيد بن ابراهيم التبي- جامعة أم القرى-مكة- العربية السعودية - ص01.

30- المرجع نفسه-ص01.

31- روزلين ليلى قريش- القصة الشعرية الجزائرية ذات الأصل العربي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط2007-ص111.

32- ينظر /محمد علي دبوز- تاريخ المغرب الكبير- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر - ج1- ص 27 وما تلاها...

33- ينظر/ محمد حجاي- شعر المعارك من البعثة النبوية إلى نهاية الخلافة الراشدة- مصدر سابق- ص 190 -193

34- محمد حجازي - أي العرب والأمازيغ تريدون؟- جريدة الشعب الجزائرية- عدد 2026-1991- ص16.

35- تاريخ المغرب الكبير (مرجع سابق) -ج1-ص33-34.

36- للمزيد ينظر / د/ طه حسين- في الأدب الجاهلي- دار المعارف- مصر- ص31 وما بعدها.

37- المرجع نفسه.

38- روزلين ليلى قريش- القصة الشعرية الجزائرية(مرجع سابق) – ص 138.

39- مقابلة خاصة مع أ.د- الطيب بودربالة-كلية الآداب – جامعة باتنة- يوليو 2011.

40- مقابلة مع أ.د علي خذري- كلية الآداب واللغات- جامعة باتنة- الجزائر- يوليو 2011.

41- د- قاسم عبده قاسم- في تطور الفكر التاريخي- عين للدراسات- القاهرة- ط1- 2004م- ص 21 42- تاريخ الأدب العربي- دار المعارف- ص23،

43- شوقي عبد الحكيم- الشعر الفلكلوري عند العرب- دار الحداثة- بيروت- ص14

44- د- أحمد سليمان ياقوت- في علم اللغة التقابلي (دراسة تطبيقية)- دار المعرفة الجامعية-مصر- ط2002- ص9

45- د- محمود السعران- اللغة والمجتمع (رأي ومنهج)- دار المعارف- ط1962- ص11

46- بتصرف- نشأة اللغة عند الإنسان والطفل- دار النهضة- مصر- ص7.

47- بتصرف د- عبد السلام المسدي- السياسة وسلطة اللغة- الدار المصرية اللبنانية- ط2007 – ص9.

48- ناديانجيليسكو- الاستشراق والحوار الثقافي- منشورات دائرة الثقافة والابداع- الشارقة- ط1999- ص21

49- حوار بين رجلين من منطقة الأوراس(بوحمامة) - الجزائر – سنة 1979

50- "سورة آل عمران آية 110".